بسم الله الرحمن الرحيم

البادية والحرب

كان قتيبة بن مسلم قائد من نوابغ القادة المعدودين الذين أنجبتهم الأمة العربية فى صدر الإسلام.

وكان يلى خراسان لملوك الدولة الأموية، فخرجت بها خارجة أهمته[1]، فقيل له: "ما يهمك منهم؟.. وجه إليهم وكيع بن أبى مسعود فإنه يكفيكهم". فأبى، وقال: "لا.. إن وكيعا رجل به كبر يحتقر أعداءه ومن كان هكذا قلت مبالاته بعدوه فلم يحترس منه فيجد عدوه منه غيره..."[2].

وهذه كلمة منه كلمات القائد العربى تنبئ عن كثير:

تنبئ عن كلمة القيادة فيه، وتنبئ عن ملك السيادة فى الأمة سياسة للنجاح وللبقاء..

فالحق أن شروط القيادة على وفرتها وعظم التبعة فيها جميعا، ليس يوجد بينها ما هو ألزم للقائد من القدرة على سبر قوته وسبر[3] قوة خصمه. وكل ما عدا ذلك فإنما هو ترتيب لما يصنعه بقوته وما يتوقع من القوة التى ينازلها أن تصنعه، أو هو تنظيم للأهبة والحيطة بين الفريقين فى المكان الذى يتلاقيان فيه.

وقد كانت لهزيمة الدول أمام العرب أسباب كثيرة: منها ضعف العقيدة واختلال النظام ونقص القيادة، وانحلال الترف وتفرق الآراء، ولكن البلاء الأكبر إنما حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل، والاستخفاف بالخصم المقاتل. فانتصر العرب لأنهم ظنوهم لا ينتصرون ولا يعتزمون الانتصار،

---

(١) الخارجة واحدة من الخوارج، وهم المتمردون على السلطان، وأهمته: أقلقته.

(٢) الغرة: الغفلة (٣) سبر قوته: اختباره.

وكان الاستخفـاف والإهمال شرًا على تلك الدول المتصلفة[1] من الاستهوال والفزع. بل كان الاستخفاف والإهمال سببا لانقلابهم آخر الأمر إلى استهوالٍ يخذل المفاصل، وفزع يفت فى الأعضاء، فاجـتمعت عليهم البليتان من سوء التقدير، ولم تنفعهم قلة المبالاة بالعدو ولا فرط المبالاة به بعد الأوان.

كانت دولة الفرس لا تنظر إلى البادية العـربية إلا نظر السيد المبجل إلى الغوغاء المهازيل[2] الذين يحتاجون إما إلى العطاء وإما إلى التأديب، وبلغ من طغيان كـسرى حين جاءته الدعوة المحمـدية أن بعث إلى النبى بشرذمة[3] من الجند تأتيه به فى الأصـفاء[4]!.. وبلغ من طغيـان جنده عامةً وخـاصةً أنهم كانوا يأنفـون أن يقرنهم احد بالعـرب فى معرضٍ من المعـارض أو غرض من الأغراض ولو للحيلة والمكيدة. فاتفق فى بعض وقعات العراق أن زعيما عربيا من جيرة الفرس أقبل على القائد الفارسى مهران ابن بهرام، ليمده بأنباء قبيلته ويعينه على خالد بن الوليد وجنده، فقال له: "إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالدًا!" فجاراه القائد الفارسى مجـاملة وخدعة ليستخلص منه أقصى العون والنجدة، وقـال له: صدقت لعمرى! لأنتم أعلم بقـتال العرب، وأنتم مثلنا فى قـتال العجم.. فغضب أتبـاعه لمجاملته هؤلاء القـوم الذين يعينوهم ويقاتلون فى صـفوفهم، وسـألوه: كيف تقول ما قـلت لهذا الكلب؟.. فلم يهدأوا عنه حتى اعتذر لهم بأنه يخدع القوم ويغرر بهم، وقال لهم: "دعونى فإنى لم أرد إلا ما هو خـير لكم وشر لهم.. فإن كنت لهم عـلى خالد فهى لكم[5]. وإن كـانت الأخرى لم يبـلغوكم - أى المسلمـون - حـتى يهنوا[6] فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون.."

---

(١) المتصلفة: من الصلف، وهو التكبر الادعاء.

(٢) الغوغاء: من الناس، أى الكثير المختلطون، والمهازيل، الضعاف.

(٣) الشرذمة: الطائفة من الناس. (٤) الأصفاد: القيود. جمع صفد.

(٥) أى فان انتصروا على خالد. (٦) حتى يهنوا: حتى يضعفوا.

وسخفوا[1] فى طلائع وقعة "أليس"[2] فعلم يحفلوا بجيش خالد الزاحف إليهم، وتنادوا إلى طعامهم الذى هيأوه، ولم يكلفوا أنفسهم قبل ذلك مشقة استطلاع الطريق!.. ليأمنوا البغتة[3] قبل تهيئة الطعام.

أما الروم فكان لهم غرور كهذا الغرور فى مواجهة البادية العربية، وكان قصارى ما حذروه فى أول الأمر أن يتغير العرب على تخومهم لينهبوا ويسلبوا ثم يفروا بسلبهم[4] إلى الصحراء.. فان أوغلوا فى بلاد الدولة الرومانية فهم مأخوذون بالهبات والوعود، أو مأخوذ بالكثرة المستعدة لا يقوم لها جند قليل يوشك أن يتجرد من السلاح بالقياس إليهم. فلما جد الجد وعرفت الدولة الرومانية من تقاتل من أولئك الجند العزل[5] على زعمها إذا هى تنقلب من الغفلة الشديدة إلى الفزع الشديد.

ويبدو لنا أن المؤرخين المحدثين لم يبرءوا كل البر من هذا الخطأ القديم.. فلا يزال الأكثرون منهم يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم، ويحسبوا هذه الغلبة شيئا قد حصل وكان ينبغى أن لا يحصل، لولا أنها فلتة لا يقاس عليها، ومصادفة لا تقبل التكرار!

وبعضهم يلتمس العلة فيقول: إنما هى وهن الدولتين ومصابهما بالخور والانحلال، أو يلتمس العلة فيقول: "إنها عقيدة المسلمين القوية وافتقار الفرس والروم إلى مثل هذه العقيدة".

وكل أولئك تعليل ناقص من كل نواحيه.

---

(١) سخفوا: رقوا وضعفوا.

(٢) أليس: لما تم لخالد القضاء على فتنة اليمامة وسيلمة الكذاب، أمره أبو بكر بالتوجه لغزو الفرس، وكان قد سبقه إلى حدودها فى ليس.

(٣) البغتة: المفاجأة. (٤) السلب: المسلوب، ومثله السليب.

(٥) جمع أعزل وهو من لا سلاح معه

فالمصادفة لا محل لها فى حوادث الوجود، ولا تطرد فى قتال بعد قتال، من جوف الصحراء إلى عمران العراق والشام ومصر ومشارق الأرض ومغاربها بين إفريقية والصين.

وانحلال دولة من الدول قد يفنيها ويعجزها عن النصر ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكين.

والعقيدة قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن يفقدها، ولكنها هى وحدها لا تغنى عن الخبرة والاستعداد، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقواد. وقد كان المسلمون على عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوادى حنين، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: "... ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين"..

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص[1] لهم من الرجوع إليها لفهم الغلبة الإسلامية، أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية، وهذه الحقيقة هى أن المسلمين كانوا أيضا أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس والروم، وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التى تنفعهم من قواد تينك الدولتين، وأن البادية العربية سواء فى عصور الجاهلية أو صدر الإسلام لم تكن من الجهل بفن الحرب تلك الحالة التى توهمها المؤرخون الأوروبيون، بل معظم المؤرخين عامة ولا تحاشى[2] منهم العرب والمسلمين..

فالصورة الشائعة فى خيال أكثر القارئين عن البادية أن حورب الصحراء لم تكن إلا مشاجرات السيوف والرماح أو بالقسى والمقاليع[3]، لا ترجع إلى

---

(١) لا محيص: لا مفر. (٢) لا نحاشى.

(٣) القسى: جمع قوس يذكر ويؤنث. والمقاليع جمع مقلاع وهو الذى يرمى به الحجر.

نظام ولا تنهج على خطة ولا يخلص منها فن يتعلمه المتعلم، ويتلقاه اللاحق عن السابق، وقوام أمرها شراذم من السطاة[1] والمغيرين سرعان ما تقبل حتى تدبر، وقصارى ما تعرفه من أساليب القتال أن تفر بعد الكر أو تكر بعد الفرار.

وهذه صورة مضللة لمن يسترشد بها فى اختبار قدرة البادية على الحروب الكبيرة والمناوشات الصغيرة.

فمن الخطأ "أولا" أن تستخف بالرياضة التى يراض[2] عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب الأجيال على أمثال هذه المناوشات، أو على ما نسميه اليوم حرب العصابات، حتى لو صح أنها كانت هى كل ما يعرفه أهل الصحراء من فنون القتال.

فالذى لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيه الأجيال على حروب العصابات التى تشترك فيها القبائل أبداً بين عادية ومعدو عليها، وأن البدوى قد عاش زمنا كما جاء فى التوراة "يده على كل إنسان ويد كل إنسان عليه". فحصل من ذلك على ملكة مطبوعة يصح أن تسمى "حاسة الحرب" أو أهبة الميدان الخالد التى لا تفارقه فى ليل ولا نهار فلا يزال حياته فى حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظة القلب للنضال الذى يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار.

وهذه ملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخرى، ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدى فى مكان العمل، ثم يطرح عنا لعاتق فى سار الأوقات.

ومن الرياضة التى يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب حروب

---

(١) أى أنها تعتمد على جماعات قليلة من الذين يسطون ويغيرون.

(٢) يراض عليها: يدرب.

العصابات أنهم يتعودون الصبر على الفرار، ويملكون الجأش عند الإدبار[1]، لأن الفرار عندهم حركة من الحركات المألوفة فى كل وقعة يخوضون غمارها، وليست هزيمة تطيش باللب وتخلع الفؤاد وتوقع فى روع[2] صاحبها أنه ضيع الأمل ولم يبق له من أطوار القتال غير التسليم. فهو فى حالة صالحة لاستئناف القتال أن أقبل وإن أدبر، وساء طمع فى النصر أو لاذ بالنجاة، وكأنه يتأخر ليتقدم فى حينها أو بعد حين، ويتحول إلى الوراء كما يتحول إلى الشمال أو اليمين، طوعًا لأمرٍ مقصود، وجريا فى عنان ممدود[3]، ومن هنا تيسر لقواد العرب فى الغزوات الكبيرة أن يلموا شمل الجيش المنهزم فى سويعاتٍ معدودات، وأن يتداركوا الخذلان من حيث يعسر على الجيوش المنظمة أنْ تتداركه قبل زمن طويل..

ولن تخلو العصابات المغيرة - مع طول المرانة - من علم بأصول الاستطلاع والمباغتة والتبييت والمخاتلة[4] وحسبان الحساب للرجعة والإفلات، وهى على بساطتها أصول لا ندحة[5] عنها فى أكبر الميادين وأصغرها على السواء.

هذا أن صح أن حروب العصابات هى كل ما حذقه عرب البادية من فنون القتال فى تاريخهم القديم.

وذلك غير صحيح..

فالعرب قد عرفوا فى حروبهم التى وقعت بينهم تسيير الجيوش بعشرات الألوف على اختلاف الأسلحة والأقسام، وقيل أن جيش الغساسنة الذى

---

(١) الجأش: القلب والصدر، والمعنى يملكون ثبات القلب عندما يضطرون إلى التقهقر.

(٢) الروع: القلب والعقل.

(٣) العنان: لجام الفرس تمده أو تشده تبعا للسرعة التى تريدها، وفى العبارة مجاز.

(٤) التبييت: الإيقاع بالعدو ليلاً، والمخاتلة: المخادعة.

(٥) لا ندحة عنها: (ليس ثمة ما يبرر إغفالها - لابد منها).

حارب المنذر بن ماء السماء لم يكن يقل عن أربعين ألفًا بين راجلٍ وفارس، وكان فى الجيش معا راكبوا الخيل وراكبوا الإبل وحاملو السيوف وحاملو الرماح والضاربون بالسهام والنبال والضاربون بالحراب والحجارة.

ولقد كانت الغساسنة[1] والمناذرة أصحاب مثلك قائم لا يعسر عليها تسيير هذه الألوف المؤلفة إلى الميادين القريبة، ولكن القبائل التى لم تكن على شىء من هذا الملك كانت تسوق الألوف للقاء أمثالها وتستعد لها بالجيوش التى تساوى فى عددها بعض جيوش القتال فى عصرنا الحديث، فاستعدت مذ حج لقتال تميم يوم الكلاب الثانى[2] بثمانية آلاف، وجرى بين الفريقين من حيل الاستطلاع والمراوغة والهجو والمطاردة ما هو مجتو لكل عناصر الكفاح الأولى فى كل زمان..

على أن البادية لم يفتها قط علم الحرب كما علمته دول الحضارة فى عصور الجاهلية العربية، فكانت غسان على مقربة من الروم تدخل معهد فى الفرق المتطوعة على حالى الدفاع والهجوم، وكان ملوك الحيرة على مقربة من الفرس يخدمهم أحيان كتيبتان من الجيش الفارسى هما الشهباء والدوسر أو "الدوشير" بمعنى الأسدين شعار الدولة الفارسية، وكان جند الشهباء من أبناء فارس وجند الدوسر من أبناء القبائل العربية، وليس يحتاج العربى إلى أكثر من هذه المقاربة وهذه القدوة لالتقاط الفنون التى يحتاج إليها فى تعبئة الجيوش، وللفطنة إلى المحلوق التى ينقيها فى مواجهة التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة.

---

(١) الغساسنة: مسبة إلى غسان، وكان ملكهم فى الشام، وأما ملك المناذرة فكان فى الحيرة (العراق).

(٢) أيام العرب تطلق على الوقائع التى كانت بينهم فى الجاهلية، وقد علم أبو الفرج الاصفهانى منها ألفا وسبعمائة يوم،، وفى يوم (الكلاب الثانى) انتصرت تميم على مذحج.

وقد تبين هذا فعلا فى وقعة ذى قار[1] التى تغلب فيها العرب على الدولة الفارسية. فإن العرب كانوا فى تلك الوقعة أبرع قيادةً وأخبر الزحف والتعبئة من قادة الجيوش النظامية. فلم يغفلوا قط عن حيطة واجبة أو حيلة نافعة قبل اشتباكهم بالجيوش الفارسية: بعثوا الطلائع وبثوا العيون وقسموا جموعهم إلى ميمنة تولاها بنو عجل، وميسرة تولاها بنو شيبان وقلب تولته بطون من بكر عليهم رئيستهم القدير هانئ بن مسعود، وأنفذوا إلى قبائل العرب الذين فى جيش الفرس رسلاً يثيرون نخوتهم ويغزونهم بالتخلى عن أصحابهم حين يجده الجد ويلتحم الجيشان، فوافقتهم إياد وبرت بوعدها فولت من الميدان فى أحرج الأوقات..

ولما أصبح يوم الوقعة الحاسمة أقبل الفرس ومعهم الأفيال والفرق المدرع فلم يرع قادة العرب ما شاهدوا من ذلك الجيش ما يشبه "مجلس الحرب" فى اصطلاح هذه الأيام. فقال ربيعة ابن غزالة السكونى: "ولا تستهدفوا[2] لهذه الأعاجم فتهلككم ينشابها[3]، ولكن تكردسوا كراديس[4]، فإذا أقبلوا على كردوسٍ شد الآخر". وقال حنظلة بن ثعلبة: "إن النشاب الذى مع الأعاجم يفرقكم، فإذا أرسلوه لم يخطئكم، فعاجلوهم اللقاء، وابدأوهم بالشدة[5]. وقال يزيد بن جمار: "أكنمنوا لهم كمينًا" ففعلوه وأكمنوه فى موضع يقال له الخبئ، وأوصوه أن يظهر حين يشتد القتال بين العسكرين وتفر قبيلة إياد من صفوف الأعاجم، فيكون فرار أنصارهم وإقبال المدد إلى خصومهم مع احتدام القتال، ضربتين متداركتين لا يقوون بعدهما على الثبات ولم يغفلوا عن

---

(١) يوم ذى قار: نسبة إلى ماء قريب من البصرة، وكان سبب الحرب أن كسرى استقدم إليه النعمان بن المنذر فى المدائن ثم غدر به وقتله، وكان هذا اليوم بعد مبعث النبى ﷺ، وأخبر به أصحابه فقال (إن هذا أول يوم نتصفت فيه العرب من العجم، وبى نصروا).

(٢) لا تستهدفوا لهم: لا تقفوا بحيث تكونون هدفا ظاهرا لهم.

(٣) النشاب: السهام بما جمع نشابة.

(٤) تكردسوا كراديس: تجتمعوا كتيبة كتيبة.

(٥) بالشدة: بالهجمة.

حمية الجند والفرسان يلهبونها للمجازفة بالحياة والأنفة من طلب النجاة، وهو ما نسميه اليوم بالروح المعنوية، فعمد حنظلة بن ثعلبة إلى وضين راحلة امرأته - أى حزامها - فقطعه، وتتبع رواحل النساء فقطع وضنها جميعا فسقطت على الأرض، وصاح بقومه: ليقاتل كل رجلٍ منكم عن حليلته[1]!.. وراح السيافون يقطعون أقبيتهم[2] من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف، وتسابق الخطباء والشعراء فى التذمير[3] والتحريض، فذهبوا جميعا يرددون قول قائلهم: "المنية ولا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره"[4].

وتبارز بعض الفرسان من العسكرين، ثم التحم الفريقان وحمى الوطيس وظهر الكمين فى أوانه، وولت إياد فتبعها فريض ممن كسرت قلوبهم هذه الصدمة التى فوجئوا بها على غير رقبة[5] وأطبق الكمين على قلب الجيش ومعه كوكب الجيش[6] العربى كله، فحقت الهزيمة العاجلة على أقوى الجيشين، وكتب النصر لأولى الفريقين به فى ميزان الفن العسكرى الذى يشمل جميع المرجحات، ما عدا المرجح المادى دون غيره، وهو العدد والسلاح.

إذ الحقيقة أن غلبة العرب فى يوم ذى قارٍ إنما كانت غلبة لليقظة على الغفلة، وللكفاية على العجز، وللخفة على الفخامة، وللفن الحربى الصحيح على النظم التقليدية التى لا تصرف فيها وللعزة المشكورة على الكبرياء المذمومة، وكان العرب خلقاء أن ينتصروا بكل وسيلة من وسائل النصر فى

(١) حليلته: زوجته.

(٢) أقبيتهم: جمع قباء (بفتح القاف) وهو الثوب، والمناكب جمع منكب وهو ملتقى رأس العضد والكتف.

(٣) التذمير: الحض على القتال لحماية الدمار..

(٤) المنية ولا الدنية: مثل قاله أوس بن حارثة يوصى ابنه مالكا، أى أن الموت أحب إلى من العار مع الحياة.

(٥) رقبة: تراقب وانتظار. (٦) كوكب الجيش: معظمه.

الحروب القديمة والحروب الحديثة، ألا تفوق الفرس فى بعض العدد التى لم ينفعهم تفوقهم فيها عند التحام الصفوف.

وليس فى وسع عالم من علماء الحرب فى زماننا هذا أن يأخذ عليهم خللا فى خطوتهم إليه، أو يحصى عليهم وجها من وجوه التدبير قصروا فيه، لأن وجوه التدبير كلها فضول[1] يعد أن تستقيم للمقاتل:

(١) أهبة الاستطلاع. و(٢) سم الخطة. و(٣) تنظيم الجيش فى مواقفه. و(٤) تنظيم الجيش فى حركاته. و(٥) إذكاء العزيمة فى نفوسه. و(٦) إضعاف العزيمة فى نفوس خصومه. وهذه كلها هى صفوة لباب الحرب فى العصر الحاضر وفى العصور الغابرة، وفى جميع العصور إلى آخر الزمان.

ويبدو لنا أن مزية الفرس والروم فى أنواع الأسلحة والعدد كانت مزية مبالغا فيها على الأقل فى ميادين الاشتباك والالتحام، إذا صح أن لها الرجحان فى مواقف الحصار ومواقف الحرب من بعيد. لأننا عرفنا من أخبار الحروب الماضية أن بعض الفرسان البواسل كانوا يترجلون ليتحكموا الضرب والحركة، وكانوا يخلعون عنهم شكتهم[2] تبر ما بها وتخففا من ثقلها ولاسيما فى أيام القيظ أو فى المواضع التى تصعب فيها حرمة المدرعين فى الشكة السابغة[3]، وكان بعض الضباط من النبلاء يستصحبون خدما لهم ليحملوا لهم شكتهم إلى حين الحاجة إليها، وجاء فى كتاب فيجتيوس Vegetius، إنجيل الحرب عند الرومان الأقدمين أن الجنود كانوا يضيقون ذرعًا بالدروع المعدنية ويستثقلونها، ويودون لو يطرحونها ويتاح لهم العمل بغيرها، ولم تكن لهم حاجة بها إلا حين يترادون على الاقتراب من مواقع السهام والنبال والحراب الطويلة، لأداء عمل من الأعمال.

---

(١) فضول: زيادات ثانوية..

(٢) الشكة: السلاح الذى يلبس، تقول شك فى السلاح) إذا لبس سلاحا تاما وغرق فيه فهو (شاك السلاح، وشاك فى السلاح).

(٣) السابغة: الوافية الواسعة.

وعندنا أن العرب قد كسبوا الطريقتين معا بشأنهم فى البادية واقترابهم من دول الحضارة. ونعنى بها طريقة العصابات وطريقة الجيوش فى إدارة الحروب.

فهم قد برعوا فى حرب العصابات بالمرانة الطويلة، ثم اقتبسوا مالزمهم أن يقتبسوه من فنون الحرب عند الدول الكبرى على أيامهم، فلم يخسروا بذلك إحدى الطريقتين بل جمعوا بينهما واستفادوا بما تفيده كل منهما فى موضعها، فأضافوا سرعة العمل فى طريقة العصابات إلى إحكام التنظيم فى طريقة الجيوش. . وكانوا يقاتلون بفنين متساندين يأخذون منهما ما يأخذون، ويدعون منهما ما يدعون، حيث كان الفرس أو الروم يتقيدون بفن واحد على التراث المحفوظ الذى لا يحسنون التجديد فيه. .

ومن المحقق أن قبائل العرب التى أقامت فى الحواضر كانت على الزمن تتلقى النصيب من كلتا الطريقتين، إما بالقدوة أو بالتعليم المقصود، ولاسيما قبائل قريش التى كانت تقيم فى عاصمة العواصم العربية من الوجهة الأدبية والثقافية، وكانت تجمع كل ما تفرق بين أبناء الجزيرة من المزايا والمعارف والصفات، لأنها أخذت نفسها بآداب الرئاسة المدنية والبدوية التى يدين بها جميع هؤلاء.

فالتاريخ الصادق يقضانا أن نعرف هذه الحقيقة لنعرف موقع العدل والإنصاف من حكم الزمن بين الأمم الكبيرة التى تنازعت السيادة بعد ظهور النهضة العربية.

فالنهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفى، بل هى انتصرت لأنها كانت تستحق النصر بأسبابه التى لا مصادفة فيها ولا محاباة، ولا محل لها لفلتة نادرة لا تقبل التكرار. .

وإنما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فتمت فى أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها.

كانوا مستفرقين بغير باعث إلى الواحدة والنهوض، فجاءتهم الدعوة الإسلامية تجمع شأنهم وتبعث كرامتهم وتنطلق بهم فى سبيلهم. فتم لهم ما نقص، وتهيأت لهم ذرائع النصر فى شرعة الأرض والسماء، وعلم النبى عليه الصلاة والسلام بيوم "ذى قار" وهو يدعو العرب إلى دين التوحيد، فرأى فيه بوادر نصر العرب على العجم، وأيقن أنه يوم تتلوه أيام، وإنه مسمع بدعوته الأمم جميعا عما قريب.

***